دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	موروفولوجية المدن العربية والإسلامية القديمة
المصدر:	مجلة بحوث ودراسات العالم الإسلامي
الناشر:	جامعة أم درمان الإسلامية - معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي
المؤلف الرئيسي:	أحمد، أحمد آدم خليل
المجلد/العدد:	ع 2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2006
الشهر:	يونيو / جمادى الآخرة
الصفحات:	305 - 325
رقم MD:	502372
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	العمارة الإسلامية ، المدن الإسلامية ، الحضارة الإسلامية ، التخطيط العمراني ، السكان ، التصميم المعماري ، الفتوحات الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/502372

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

مورفولوجية المدن العربية والإسلامية القديمة

الدكتور / أحمد آدم خليل أحمد*

قال تعالى :-

" بسم الله الرحمن الرحيم" (وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

الاية (٧٤) سورة الأعراف

مختصر البحث

نشأت المدن العربية والإسلامية القديمة متزامنة مع حضارات أخرى سادت في نفس مناطقها أو مجاوره لها، ورغم أنها (المدن العربية والإسلامية) نشأت فى ظروف اقتصادية واجتماعية مختلفه إلاَ أنها استطاعت أن تؤسس لطراز معماري وحضارى متميَز، مرجعيته الدين الإسلامي الحنيف وتعاليم الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، ويظهر ذلك في تركيبتها الداخلية (مورفولوجيتها) من خلال خُطه شوارعها وتوزيع الاستخدامات المختلفة للأرض فيها.

هدفت هذه الدراسة لإعطاء صورة تشريحية للمدن العربية والإسلامية القديمة وتكوينها الداخلي من خلال التعرف على العوامل الطبيعية والبشرية التي أسهمت في مورفولوجيتها.

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي لتتبع الجذور الأولى للمدن العربية والإسلامية القديمة ومراحل نُموها وتطورها بجانب استخدام المنهج الوصفي التحليلي والمنهج الإحصائي لتحديد المعايير الكمية لمورفولوجية المدن وعلاقتها بالعوامل البشرية وما يترتب على ذلك من أشكال ومساحات متعددة للاستخدامات المختلفة وبالتالي تحديد الخصائص العامة لهذه المدن.

* أستاذ مساعد – كلية الآداب – جامعة أم درمان الإسلامية.

خلصت هذه الدراسة لعدد من النتائج منها:-

١/ كان لدى العرب والمسلمين فهم عميق بالعمران والعمارة نابع من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

٢/ تأثرت التركيبة الداخلية للمدن العربية والإسلامية القديمة بالسمات النبوية الشريفة فى خطة المدينة المنورة (يثرب).

المقدمة :-

تزامنت المدن العربية والإسلامية في نشأتها مع حضارات أخرى سادت في نفس مناطقها او مجاورة لها، ولا شك في أنها استفادت كثيراً من تلك الحضارات السابقة لها باقتباس ما يتلاءم مع تقاليدها ومعتقداتها، وليس في ذلك انتقاص ولا تبخيس لقدرها، لأن الحضارات جميعها سلسلة متصلة من الحلقات، كما أن لكل جماعة تصورها الحضري وكذلك لكل منطقة أو أمه مدنها الخاصة التي تميزها عن غيرها من خلال طابعها المعماري، خصائصها العمرانية، نمط الحياة فيها وتركيبتها الداخلية.

نشأت المدينة العربية القديمة في ظروف اقتصادية واجتماعية مختلفة، استطاعت من خلال توافقها معها أن تؤسس لطراز معماري وعمراني وحضاري فريد مرجعيته الدين الإسلامي الحنيف وتعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم).

إن التركيب الداخلي لأي مدينة يعطي صورة تشريحية لها ويوضح مواقع الاستخدامات المختلفة للأرض داخلها، ويبين أهم مراكزها الحضرية ومدى اتساعها الجغرافي، والمدينة العربية والإسلامية القديمة كانت تتميز بمورفولوجية خاصة، ومن خلال هذه الدراسة سنحاول التعرف عليها.

أسباب اختيار الموضوع :-

هنالك عدة أسباب ادت لاختيار هذا الموضوع منها :-

١/ الرغبة الشخصية للتعمق في دراسة العمران الحضري لدى العرب والمسلمين.

٢/ عدم وجود دراسة تخصصية فى هذا المجال.

٣/ لفت انتباه الدارسين للمدن العربية والإسلامية القديمة تبصيراً بهـا وتبـصراً لأهميتها.

مشكلة الدراسة :-

يرى بعض الغربيين المتخصصين في مجال العمران والدراسـات الاجتماعيـة أن المدينة العربية والإسلامية القديمة ما هي الاَ تقليد وتشوية لمدن الحضارات التي سـبقتها بل يحملها البعض عبء اضمحلال وانهيار بعض المدن في الشرق الأوسط القديم.

أهداف الدراسة :-

تهدف هذه الدراسة لتحقيق الآتي :ـ

١/ التعرف على العوامل الطبيعية والبشرية التي أسهمت فى مورفولوجية المـدن العربية والإسلامية القديمة.

٢/ إعطاء صورة تشريحية للمدن العربية والإسلامية القديمة وتكوينها الداخلي.

٣/ تتبع إسهامات العرب والمسلمين الفكرية، العمرانية، المعمارية والحضارية فى المدن التي أقاموها.

٤/ دراسة الإضافات العربية والإسلامية للمدن من حيث فن العمارة.

أهمية الدراسة :-

تعود أهمية هذه الدراسة إلى الآتي :-

١/ الاهتمام بإحياء التراث العربي والإسلامي.

٢/ تعتبر إضافة أكاديمية جديدة إلى الدراسات العربية والإسلامية.

٣/ تنبيه المتخصصين إلى ضرورة دراسة المدن العربية والإسلامية القديمة.

٤/ التأكيد على الدور العربي والإسلامي فى هذا المجال.

الفرضيات:-

يمكن إجمال أهم فرضيات هذه الدراسة في الاتي :-

١/ أثرت الحضارات السابقة بعمارتها وظروفها الاقتصادية والاجتماعية على المدينة العربية والإسلامية القديمة.

٢/ تأثرت التركيبة الداخلية للمدنُ العربية والإسلامية القديمة بالفكر الإسلامي الأول متمثلاً في عمران مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

٣/ كان للجهاد ونشر الدعوة دوراً في قيام مدنٍ جديدة.

٤/ كان اختيار المواقع البرية لقيام المدن العربية والإسلامية القديمة يتم على أسس بشرية.

منهج الدراسة :-

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي لتتبع الجذور الأولى للمدن الإسلامية ومراحل نموها وإزدهارها بجانب اعتمادها على المنهج الوصفي التحليلي من خلال البيانات المتناثرة في الكتب الجغرافية، التأريخية والاجتماعية التي تتعلق بالمدن العربية والإسلامية القديمة فضلاً عن استخدام المنهج الإحصائى (الكمى) لتحديد المعايير الكمية لمورفولوجية المدن وعلاقتها بالعوامل البشرية وما يترتب على ذلك من أشكال مختلفة ومساحات متنوعة، تحدد الخصائص العامة لهذه المدن.

الإطار الزماني للدراسة :-

يشمل الإطار الزماني لهذه الدراسة الفترة من ميلاد الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** حتى القرن الثامن الهجري.

الإطار المكاني للدراسة :-

تمتد هذه الدراسة في الرقعة الجغرافية المعروفة بالشرق الأوسط القديم (انظر الخريطة رقم (١)).

المقدمة :-

إن محاولة التعريف والتفريق بين البداوة والحضارة من الموضوعات القديمة التى وجدت اهتماماً لدى العرب والمسلمين، فأطلقوا أسماء عديدة للتعريف والتفريق

بينهما، فاستخدموا كلمة (الوبر) للدلالة على البدو و(والمدر) " وهو الطين المتماسك الذى شاع استخدامة فى البناء " للدلالة على القرى والمجتمعات المدنية، كذلك أطلقوا كلمة (الحدر) "وهى الأرض المنحدرة أو المنبسطة التى لا يمكن البناء عليها" للدلالة على البادية، بينما تدل كلمة " الحجر" على التمدن بإعتبار أن "الحجر" شيدت به العديد من المدن القديمة مثل مدائن صالح. (سالم، ٢٠٠٠م، ص ٤)

لقد تناول ابن خلدون فى كتابه " ديوان العبر والمبتداء والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر" فكرة البداوة والحضر مبيناً أن (البدو) هم المقتصدون على الضرورى فى أحوالهم، أما الحضر فهم المعتنون بحاجات الترف والكمال فى أحوالهم وعوائدهم، وبما أن الضرورى أقدم من الكمال فإن البدو أصل للمدن والحضر وسابق عليها. (وافى، ١٩٥٨، ص ٤١٣).

تعود جذور الفكر العمرانى الأول إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام قال تعالى (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). (البقرة – (١٢٧)) وقال كذلك (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ). (البقرة– (١٢٦)).

إن مفهوم البيت والأمن لا يمكن توفرهما إلاَ من خلال فكر عمرانى يرتبط بأبعاد حضارية عريقة، حيث أن الإسلام فى روحه وجوهره دين يرتبط بالحضر والعمران والحياة الفكرية والاجتماعية وبالتنظيم المستقر للناس وتعاونهم.

وقد استطاع الفقهاء والمهتمين بالعمران تحديده من خلال قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : "لا جمعة ولا تشريف ولا فطر ولا أضحى إلا فى مصر جامع" وهو فهم يرتكز على الظروف الاجتماعية والبيئية والاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية.

فأصبح الأساس فى المدينة أو المَصر اجتماع الناس وكثرتهم وهى وجهة نظر دينية تبناها الفقهاء، لكن مع بداية العصرالجغرافى " القرن الرابع الهجرى " تغيرت تلك الوجهة إلى نظرة أخرى قائمة على إتساع المنطقة المكاني والبشري (**شـــاكر، ١٩٨٨، ص ص ٦٨-٨٦**).

وهذا الفهم يتفق مع بعض النظريات الحديثة التى درست ظاهرة المدينة () أمثال ممفورد () وماكس ويبر () وماك آدمز()، وتعرفه على أسس تاريخيـــة، إداريـــة، وظيفية، جمالية، عددية السكان، كما أن كلمة " مدن " تعنى أقام واستقر و" الديان " هو الحاكم المقيم بالمدينة.(شاكر، نفس المرجع، ص ص ٢٨-٣٠).

هذا وقد تميزت المدن العربية والإسلامية القديمة بتركيبة داخلية خاصـــة مـــن حيث الشوارع والدروب، الساحات، تصميم المبانى وارتفاعاتهـــا، مـــواد البنـــاء، العمارة المستخدمة واستخدامات الأرض استغلالها، مما أكسبها ملامح خاصة بها لا توجد فى كثير من المدن التى صاحبت نشأتها وتطورها علماً بأن معظمها قام فـــى مناطق متباينة المناخ، الموارد المائية، التركيب الجيولوجى فـــضلاً عـــن بعـــض العوامل البشرية متمثلة فى الجوانب التاريخية والثقافية، المعتقدات الدينية وجميعها تمثل التراكيب الداخلية للمدن (البشرى، ٢٠٠٥، ص ١١٣).

نشأة المدن العربية والإسلامية القديمة :-

احتكت الحضارة العربية عند قيامها بالحضارة البيزنطية التى سادت فى الأقطار المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت مدينة الإسكندرية مركـــزاً للثقافـــة اليونانية والرومانية، كذلك تأثرت الحضارة العربية بمجاورتها للحضارة الساسانية التى سادت فى العراق وفارس والتى أتاح لها بعدها عن البحر الأبيض المتوســـط فرصة للاحتفاظ بتراثها الآسيوى الخاص الذى ساهمت فى تكوينـــه الحـــضارتان الصينية والهندية، وأفادت الحضارة العربية منهما وأقتبست ما يتلاءم مع تقاليـــدها وعقيدتها وليس فى ذلك انتقاص ولا تبخيس لقدرها لأن الحضارات جميعها سلسلة

متصلة الحلقات، ولا نكاد نجد صانعاً مبتكراً الا وتلقن مبادئ صناعته ممن سبقوه من الصنّاع فضلا عن أن قيمة الحضارة العربية والإسلامية تتمثل فى ذاتها، كما أن من مزايا الفن والإبداع قابليته للإقتباس ويزيده الإشتقاق حيوية وينمى فيه غريزة الإبتكار. وكما هو معلوم فإن لكل جماعه تصورها التمدينى ولكل منطقة وأمة مدنها الخاصة التى تميزها عن غيرها، بطابعها، خصائصها، نمط الحياة فيها، وفكرها، كما أن هناك سمات خاصة لمدن كل منطقة وتقسيماتها الفرعية التى تضمن لها عدم التشابه والكامل مع أى مدينة أخرى.

تاسيساً على ما سبق يمكنا تقسيم المدن الإسلامية القديمة من حيث نشأتها إلى الآتى :-

١/ مدن قديمة مكتسبة :-

تتمثل هذه المدن فى المراكز العمرانية المتطوره ذات التاريخ العريق وهى مدن سبقت فى قيامها الفتح العربي والإسلامي فاتخذها العرب حواضر لهم بعد أن فتحوها وإكتفوا بمبانيها عند تشييد دور جديدة لهم، وأدخلوا عليها بعض الإضافات الجوهرية لمظهرها العمرانى فتحولت إلى مدن إسلامية مثال مدن (الإسكندرية)، (قرطبة)، (دمشق) و(طليطلة).

٢/ المدن الجديدة :-

اقترن عصر الفتوحات الإسلامية بإنشاء مدن ومراكز عمرانية كضروره إقتضها عملية نشر الدعوة وما صاحبها من عمليات الجهاد فى الشرق والغرب فعمدوا إلى تطويرها وإزدهارها بإعتبارها مراكز للدعوة وقواعد لتجميع المجاهدين وإعداد الفرق والسرايا للفتح، فضلا عن انشاء الكثير من المدن الجديدة لأسباب وأهداف متعددة نذكر منها :-

١/ تدعيم نظام الدفاع الإسلامى وتتمثل نوعية المدن التى قامت لهذا الغرض فى القلاع، والقلعة نظام للسيطرة على سكان المناطق، وكانت من المراكز المهمة فى العمران العربى الإسلامى لمواجهة تحديات الأنظمة المنهزمة ومحاولاتها

المتكررة لإسترداد أمجادها بطرد العرب والإسلام، ومن تلك " القلاع "(قلعة جابر)، (قلعة أيوب) بالأندلس و(قلعة حمّاد)، (قلعة تونس) ببلاد المغرب.

٢/ تمكين المصالح الاقتصادية للمسلمين حيث أنهم شاركوا أهل البلاد المفتوحة حياتهم المتحضرة وأسهموا بنصيب وافر فى الأنشطة الاقتصادية المختلفة بجانب الفن ومظاهر الترف والاستمتاع بالحياة بأعتبارهما من مستلزمات التحضر والتأنق مثل (مرسية) فى بلاد الاندلس.

٣ / الأسباب السياسية، وهذه قد تتعددت بتعدد الخلافات الإسلامية المتعاقبة، ففى العصر العباسى قامت كثير من المدن لتكون مراكزعقائدية أو حصناً لمذهب الدولة الحاكمة مثال (فاس) فى المغرب و(القاهرة) فى مصر، وأقيمت مدن للتعبير عن فرحة الانتصار على أعداء الإسلام مثل (المنصورة) فى مصر و(رباط الفتح) فى المغرب، كما أنشئت مدن أخرى كقواعد إسلامية ومراكز إشعاع للحضارة العربية والإسلامية فى البلاد المفتوحة مثل (البصرة ()، ())، (الكوفة ()، ())، (الفسطاط ()، ())، و(القيروان ()، ())، كذلك مدنٌ جديدة كمواقع لراحة الأمراء والسلاطين والخلفاء مثل (الزهراء) بالقرب من قرطبة، (العباسية) بالقرب من القيروان و(عين الجر) فى سهل البقاع.

أما إعمار المدن واستمرارها فكلما طال أمدها شيدت المصانع والمنازل الفسيحة المتعددة ويتباعد نطاق الأسوار ليتواكب مع النمو فى الخطة العمرانية، ويحدث العكس صحيح، فعند قصر عمر الدولة يتراجع عمرانها وتخرب. (سالم، مرجع سابق، ص ١٥).

أسماء ودلالات المدن العربية والإسلامية القدمية :-

اتخذت المدن العربية والإسلامية اسماء متعددة وذات دلالات بعضها يعود لأصول فارسية أو بربرية حيث أن العرب كانوا قد سيطروا على مناطق تعود إلى الحضارتين البيزنطية والساسانية مثال (بغداد) التى كانت تمثل عاصمة للدولة العباسية التى كان عمادها الفرس، كذلك هناك بعض المدن التى تم تأسيسها فى

المغرب الأقصى مثل (مراكش) والتى أسسها يوسف بن تأشفين ومدينة (فاس) التى أسسها إدريس بن عبدالله بن الحسن.

كذلك من المعانى والدلالات لأسماء المدن العربية والإسلامية القديمة ما ارتبط بمعانى ومضامين الجهاد والمجاهدين والنصر مثل مدينة (العسكر) وتعنى مخيمات الجند والتى أسست سنة (١١٣هـ) بالجزء الشمالي الشرقى من الفسطاط وهى تعنى الخيمة والتى كان قد أسسها عمرو بن العاص سنة (٢١ هـ)، ايضاً هناك مدينة (الرباط) وهى المدينة التى يخرج منها المجاهدون فى سبيل الله للجهاد فى الأندلس. أما مدينة (القاهرة) فتعنى قاهرة الأعداء، فضلا عن اسم (المنصورة) وهى موضع لواقعة عسكرية انتصر فيها الأيوبيون ومماليكهم على جيوش لويس التاسع.

تدل كل هذه الأسماء على الحالة الاجتماعية والروحية التى كانت سائدة لدى العرب فى ذلك الزمان.

وقد تدل الأسماء على مظاهر طبيعية أو التنظيم والتخطيط أو الإنتساب إلى المؤسس الفعلى للمدينة مثل مدينة (الكوفة) وتعنى (تكوف الرمل) أى تكومه، وقد تعنى كذلك الرمل الذى يختلط بالحصى، وقد اختطها عمرو بن العاص سنة (١٧ هـ) بأمر الخليفة عمر بن الخطاب.

أما مدينه (القطائع) فتعنى الخطط وكانت توجد إلى الشمال الشرقى من مدينة (العسكر). وهناك مدينة (المهدية) التى تنسب إلى عبيدالله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية بتونس سنة (٣٠٣ هـ).

إجمالاً فقد أصبحت هذه التسميات دلالات للمناطق المتعددة التى قامت فيها ورمزاً قائماً وشاهداً على الحضارة العربية والإسلامية. **(سالم، ١٩٦٢م، ص ٢٥).**

مواقع المدن العربية والإسلامية :-

تم اختيار العرب للمواقع الجغرافية على أساس استراتيجيات تقوم على عدم إلمامهم بشئون ومهارات الملاحة البحرية، كما أن حياتهم الاقتصادية كانت قائمة على الرعى والتجارة لذلك كان إحتياجهم إلى يابس يحتوى على مراعى صالحة لرعى الإبل، بجانب تفاديهم للتعرض إلى الغزو من جهة البحر خاصة وأنهم كانوا يجاورون ويُحاربون أجناساً برعت فى الملاحة مثل الفرس والروم، أيضاً لحرصهم على عدم قطع الصلة بين أجزاء الخلافة الإسلامية. وقد أفاد بعض المؤرخين مكاتبة الخليفة عمر بن الخطاب إلى بعض قادتة ينهاهم عن اختيار مواقع يكون الماء فيها حائل بينه وبينهم سلماً أو حرباً، (لا تجعلوا بينى وبينكم ماء، حتى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم). (**المقريزي، ١٢٧٠، ص ص ٥٥٥-٥٥٦**)، كذلك حتى يسهل الاتصال بين المجاهدين ومركز القيادة بجانب تيسير الإمداد، لذا تخيَّر القائد عمرو بن العاص مدينة (الفسطاط) بالقرب من حصن (بابليون) بدلاً عن مدينة (الإسكندرية) كذلك فعل سعد بن أبى وقاص عندما خط مدينة (الكوفة) على الجانب الغربى من نهر الفرات بدلاً عن (المدائن)، (**سالم، ١٩٨٧م، ص ٣٦**).

تخطيط المدن العربية والإسلامية :-

إن العرب الفاتحين كانوا أصحاب علم وخبرة فى تخطيط المدن والقلاع والحصون والصياصى بما يمتلكون منها فى اليمن والحجاز وعمان وغيرها.

وقد إختار العرب المسلمون عند الفتح خمسة معسكرات لجيوشهم، اثنان منها بالعراق (البصرة، الكوفة) واثنان فى الشام (الجابية، قنسرين) واحد فى مصر (الفسطاط) بجانب معسكر سادس أقاموه عندما توسعوا فى المغرب (القيروان)، ثم تطورت هذه المعسكرات (فيماعدا معسكري الشام) لتصبح المدن الإسلامية الأولى كنتيجة لضروريات الأمن والتجارة.

ولفهم مخططات المدن الإسلامية يجدر الإشارة إلى النقاط الآتية :-

- الهيكل الأساسى لتلك المدن التى نشأت مكان تلك المعسكرات جرى تصوره وتنفيذه فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب وبتوجيهاته التى استلهم بعضها من أعمال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأبتكر البعض الآخر أو إقتبسه فكانت قواعد للمدينة الإسلامية فيما بعد.
- ظلت جميع المدن التى أقيمت أيام الفتح (البصرة، الكوفة، الفسطاط، القيروان) مطلة على حافة الصحراء وظهيرها للبادية تستمد منها المدد المباشر ولم تتوغل داخل الأراضى الزراعية إلاُ بعد أن استقرت الدولة وأمنت لمصيرها بعد حوالي (٧٠ سنة) (واسط، الرملة، الموصل، شيراز).
- كانت القبيلة هى الأساس السكانى فى خطط المدن الأولى (البصرة، الكوفة، الفسطاط) لأن تكوين السكان النازحين من الجزيرة العربية وكذلك تعبئة الجيوش كانت تتم قبلياً.
- كانت المدن الأولى تقوم على أساس مخطط مسبق وكانت خططها منظمة التنظيم المدنى واستطاعت أن تحافظ عليها، الا أن ازدحام السكان أدى إلى عدم استقامة الطرق مما انعكس على المحلات التجارية التى أصبح تواجدها عشوائياً.(شاكر، سبق ذكره، ص ص ٣٢٠-٣٢٢).
- إن المدن الإسلامية الواقعة فى المناطق الحارة كانت تتشابة فى خصائصها التخطيطية والحلول البيئية المتبعة فى تصميمها.
- حيث كان تخطيط المدينة يجرى وفق مستويين أحدهما التخطيط الواعى وينصب على التخطيط العام للمدينة ويشمل أسوارها وأبوابها وشوارعها الرئيسية التى تتجه إلى قلب المدينة حيث المسجد الجامع ودار الإمارة، أما المستوى الآخرفيشمل الطرق الفرعية والمساكن.(سا جوانى، ١٩٩١، ص ص ٢٩- ٥٠). تكاد معظم المدن الإسلامية القديمة أن تتفق فى سماتها العامة من حيث مظهرها العام وطريقة تخطيطها وتوزيع مراكزها العمرانية، كما يظهر

تشابهها فى ضيق شوارعها وتعرجاتها وتشعب طرقاتها، وعلى الجانب الآخر نلمس بعض الفروقات فى الخصائص الفنية متمثلة فى التفاصيل الزخرفية، وتتمثل نقطة الارتكاز فى مركزها ونواتها التى تحوى المسجد الجامع، دار الإمارة، الأسواق وهو تقليد مأخوذ من مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم). (شاكر، سبق ذكره، ص ٣٤٧). ولكي ما نتعرف على خصائص تخطيط المدن العربية والإسلامية القديمة وجب الدخول إلى مراكزها العمرانية المختلفة بجانب التعرف على إستخدامات الأرض المتمثلةً فى الاتى :-

أولاً :- المسجد الجامع :-

كان المسجد الجامع يمثل أهم المراكز بالمدينة، ويكفى للدلالة على ذلك شروع الرسول صلى الله عليه وسلم فى بناء المسجد النبوى الشريف بعد النزول ب(يثرب) والتى أصبحت تحمل اسم (المدينة)، والحال كذلك عندما نزل العرب بالمدن القديمة السابقة فى نشأتها للفتح الإسلامى، فشرعوا فى صبغتها بالصبغة الإسلامية ببناء المسجد الجامع على أنقاض الكنائس الكبرى أو بتخصيص جزءاً منها لتصبح مسجداً جامعاً، كما حدث فى كنيسة (يوحنا المعمدان) حيث خصص جزءاً منها لبناء مسجد جامع فى عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك بن مروان (٨٨- ٩٦ هـ) الموافق (٧٠٧ – ٧١٤ هـ) ومع مرورالوقت أصبح هذا الجامع مركز المدينة وقلبها النابض بحياتها حيث تتفرع منه الطرق المؤدية إلى أبواب المدينة.

وحول مساحة المسجد تقام الأسواق، الحمامات والخانات (الفنادق) كما كانت تعقد فيه الاجتماعات السياسية وتوزع فيه الوية الجيوش وإقامة حلقات الدرس والتفاكر، مثال جامع عمرو بن العاص بمصر (جامع الفتح).

أما بالنسبة للمدن الجديدة النشأة أى التى قام العرب والمسلمون بتشييدها فلا يختلف فيها الحال عن سابقتها إلا فيما يختص بكثرة الأبنية كالجسور والقناطر وأقواس النصر والأسوار قديمة النشأة.

لذلك ليس غريباً أن يسيطر المسجد الجامع على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى المدينة لأنه يبنى أولاً للدلالة على السيادة والسيطرة الإسلامية وإلى جانب كونه مكاناً للعبادة فقد كان مقراً للمناقشات ومجلساً للقضاء، مكتبة، مقراً للقراءة، مدرسة لتلقين أصول الدين الإسلامى والقرآن الكريم وعلى اعتبار ما سيقوم به من أدوار فى حياة المدينة كمركز للدعوة والتجمع للمسلمين. (**المطرى**، ١٩٩٨، ص ٦٣).

ثانياً :- أقسام المدينة (الأحياء) :-

لم تكن الأحياء او الخطط مفصولة عن بعضها البعض بحواجز أو فواصل فهى متلاصقة ولا توجد فسحات بين الدار والآخر وكأنما المدينة بناء واحد متماسك الأبنية، وتشمل كلمة خطة الأرض التى ينزلها الإنسان أو يخطها لنفسة من الأرض، أى يجعل لها حدوداً ليُعلم أنه نازلها وأنها له. ثم تطور معناها وصار يقصد به الحى الذى تختص به قبيلة او أصحاب مهنة واحدة او وظائف عند تعمير مدينة من المدن. (غالب، بدون، ص ٣٦٤).

كانت المناطق السكنية فى المدن العربية والإسلامية القديمة تخط حول الجامع فى شكل دور للقبائل، وغالباً ما كانت تلك الخطط أو الحارات تسمى بأسماء أكبر أسرة فى القبائل مثل حارة شرحبيل أو باسم بناء مشهور مثل حارة مسجد الكهف فى قرطبة.

عندما فتح عمرو بن العاص مصر وأسس مدينة الفسطاط عام (٢١هـ) أقام أول مسجد فكان (جامع الفتح) بمصر، وسمي (تاج الجوامع) ثم أقام لصقة بشرقه داراً كبيرة له عرفت (بدار عمرو الكبرى) ثم أوكل عمرو بن العاص لأربعة من زعماء القبائل توزيع الخطط حول المسجد الجامع وهم معاوية بن صريح التجيبي، شريك بن سمي القطيفي، عمرو بن ابى قحزم الخولاني، وحويل بن ناثر السنافري فوزعت حول الجامع الدور والخطط للقبائل التى شاركت فى فتح مصر وسميت بخطة أهل الراية من الجهة الجنوبية للجامع، وخطة (مهرة) شرقى الجامع وتألفت

من هذه الخطط أحياء الفسطاط مثل (تجيب)، (لخم)، (الصُدف)، (سبأ)، (غامق).، (سالم، سبق ذكره، ص ٢٦).

ثالثاً :- الدار " المسكن " :-

كان المسكن او الدار أهم أبنية المركز العمراني الاجتماعي بالمدينة وكانت تزداد كثافته كلما اقتربنا من قلب المدينة حيث يوجد الجامع ودار الإمارة، وقد كان المنزل فى المدينة العربية والإسلامية القديمة ينشأ من فراغ مركزى يمثل صحن الدار أو الفناء (fina) والذى يعرف فى القاموس الأجنبي (courtyard) بأنه مساحة مفتوحة محاطة بحوائط أو مباني، وتُعرف في المعاجم العربية بأنه حوش داخلي أو منور يترك فى وسط سطح المبنى لاضاءة وتهوية وحدات المبنى من أربعة جوانب (منور مغلق) أو ثلاثة جوانب أو جانبين (منور مفتوح) تلتصق به غرف تطل أبوابها وفتحاتها عليه.(عبدالجواد، بدون، ص ٢٤٦).

تجدر الإشارة إلى أن الفناء الداخلى تم استعماله فى حضارات كثيرة فقد ظهر باسم (ساحة القصر) فى الحضارة الفرعونية كما ظهر المسكن ذو الأحواش بشكل عام فى الحضارة الإغريقية والعمارة الفارسية والرومانية (مجلة عالم البناء، ١٩٩٨، ص ١٢)

كان المظهر الخارجي للدار بسيطاً، يخلو من النوافذ ومطلي بالجير، أما مكان الداخل فكان مكتز بالزخارف ويتأنق الجدران بالنقوش كما كانت الأشجار تغرس بالفناء الداخلي للدار، ويعود الإختلاف الداخلي والخارجي للدار لوجود النساء بالمنزل لفترات طويلة فنجد بالداخل ما ينفث عنها ويُسرى عن همومها فقد كانت المرأة تقضي معظم الوقت في صحن الدار الذى يمثل مصدر الضوء والهواء ويعتبر الصحن المكشوف (الحوش) إضافة هندسية فى عمارة الدار السكنية، بجانب المشربيات المزخرفة بالأخشاب المنقوشة والتي كانت تستخدمها النساء لمراقبة المارة والأُنس بالتحدث مع الجارات.

أما الأبواب الواقعة فى شارع واحد فكانت توضع غير متقابلة حتى لا ينظر الجار فى فناء جاره، وكانت توجد مداخل تؤدي إلى صيوانات (ردهة) تتخذ غالباً شكل ممر منكسر حتى يحجب الفناء الداخلي عن الأنظار (سالم، ١٩٧٧، ص ص ٢٩-٣٣).

رابعاً :- الخانات (الفنادق) :-

كان الغرض منها إيواء التجار الغرباء وتخزين كميات كبيرة من السلع قبل توزيعها على تجار التجزئة، فكانت عبارة عن بناء متواضع للغاية، يضم عدداً من الغرف الخالية من الأثاثات حيث لا يجد النزيل (المسافر) سواء غطاء وحصير ينام عليه، أما دواب المسافرين والنزلاء فكانت توضع فى فناء الخان أو الفندق.

كانت تلك الخانات تنتشر فى مواقع قريبة من المساجد الجامعة لكثرة المسافرين مثال خان (الفحم) بغرناطة فى أسبانيا والذى يعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر الميلادي وكذلك خان (الذراكشه) غرب جامع الأزهر والذى يعود تاريخ بنائه إلى مطلع القرن السادس عشر الميلادي.

خامساً :- الشوارع :-

كانت أغلب الشوارع فى المدن العربية والإسلامية القديمة ضيقة ومتعرجة فى مساراتها، ويرجع ذلك للتقليل من تعرضها للإشعاع الشمسي المباشر، كما يتناسب ذلك مع وسائل الانتقال المتمثلة فى الدواب والعربات التى تجرها الدواب وهى لا تتطلب شوارع ذات عروض أكبر، بجانب كونها تأثرت بضيق الرقعة المبنية وانحصارها ضمن سور أو واحة. وكان لكل شارع منها منافذ بها أبواب تغلق ليلاً لتأمين سكان الشارع من اللصوص.

كانت الشوارع الرئيسية التى يتراوح عرضها (٤) أمتار كانت ترتبط بين الأبواب الرئيسية على الأسوار الخارجي للمدينة ومركزها حيث المسجد الجامع، وترتبط فيما بينها عن طريق حارات ضيقة غير مستقيمة فى تخطيطها وتكون شبكة

خطوطها متعرجة ومتداخلة لا تدخلها أشعة الشمس من كثرة انحناءتها وتؤدى هذه الحارات التى كانت تستخدم للحركة داخل المناطق السكنية وبها بعض الأنشطة التجاريه الخفيفة ويتراوح عرضها (٢ــ ٣) متراً إلى أزقة بعرض (١,٥٠ــــ ٢) متراً ودروب وزنقات بعضها مغلق والبعض الآخر مفتوح (لمعي، بدون، ص ٢٤٦). كان يقوم بحراسة تلك الشوارع خفراء يغلقونها ليلاً ويفتحونها صباحاً عرفوا بعدد من الأسماء فى المشرق والمغرب مثل (أصحاب الأرباع)، (الدرابين).

شكلت الأبواب عاملاً قوياً فى خلق روح التعاون والتفاهم بين سكان الدرب أو الشارع الواحد فكانوا يشتركون فى نظافته وردم مناطق تجمع المياة والطين وطرح القاذورات. (ابن عابدون، ١٩٥٥، ص ٣٥).

سادساً :- الأسواق :-

كانت الأسواق تمثل جزءاً من تكوين المسجد الجامع، حيث كان يخصص جزءاً منه (بيت الصلاة) وهو مسقوف أما الجزء الآخر فكان يمثل الصحن المكشوف.

اكتسبت الأسواق أهمية كبيرة فى الجوانب العمرانية للمدن العربية والإسلامية القديمة بعد المركز الديني فكانت الحوانيت والمركز التجارى والصناعي تؤلف مجموعه قيسارية (سوق) تحيط بالمسجد الجامع، وسميت الشوارع حول الجامع بما يباع أو يصنع فيها مثل شوارع (العطارين)، (الخياطين)، (الحطابين)، (الفخارين)، (الوراقين)، و(النحاسين)، وكانت الأسواق تمتاز أيضاً بالتخصص بحيث تتجاور فيها الحرف والأنشطة المتجانسة وتتباعد الصناعات والأنشطة المتنافرة التى يخشى من بعضها على البعض الآخر.

أما الحوانيت فكانت عبارة عن أماكن ضيقة قليلة الإرتفاع أشبه بالخزانات المقامة داخل الجدران ولها مظلة مائلة من الخشب أو الحصير لتقي السلع والبائع وعملاءه حرارة الشمس.

وكانت أبواب الحوانيت تغلق بألواح متحركة تربطها مزاليج محكمة ومن أشهر تلك الأسواق والحوانيت (خان الخليلي) فى مصر الذى أسسه الأمير (شركس الخليلي) فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، ويتكون من خليط من الأبنية القديمة وبعض الأبنية الحديثة التى تم إضافتها فى عصور لاحقة حتى أصبح يتألف من شبكة من الدروب والحارات والأزقة الضيقة.

ظلت كثير من الأسواق القديمة (شبه جزيرة إشبيلية) محتفظة بحركتها الاقتصادية ومراكزها العمرانية وأسماءها، رغم تحولها بين المسيحية والإسلام والعكس، فنجد مثلاً كلمة (zoco) بالأسبانية تعنى (السوق) كما نجده قد احتفظ باسم القيسارية (Alcaiceria) (ابن عبدون، المرجع السابق، ص ٢٧).

سابعاً :- الحمامات :-

كانت الحمامات كثيرة ومتعدده كأحد الظواهر الحضارية البارزة فى مدن ذلك الزمان عموماً والمدن العربية والإسلامية تحديداً، فعادة الاستحمام من العادات المتأصلة بعمق فى الإسلام الذى تقوم كل أركانه على النظافة والطهارة، لذلك كان موقعها الطبيعي بالقرب من المساجد الجامعة.

كانت الحمامات تمثل المكان الذى يستشعر فيه المرء بهجة الحياة بما يولده فى النفس من إحساس بالراحة وبما يحدثه من شعور بانتعاش روحي وبدني بجانب الشعور النفسي الذي يحدثه بخار الماء وما يتبع ذلك من تدليك، كما تمثل الحمامات مراكز للاجتماعات المرحة ومجالس للأ نس واللهو والغناء.

١. وتتكون الحمامات فى بلاد المغرب الإسلامي من ثلاث غرف متجاورة تسمى الأولى منها (بيت المستراح) وهو عبارة عن غرفة خاصة بالراحة وخلع الثياب وارتداء السروال أو الإزار، أما الغرفة الثانية فتسمى (بيت البارد) وهى عبارة عن قاعة ذات درجة حرارة مرتفعة عن الغرفة الأولى، والغرفة الأخيرة تسمى (بيت الساخن) وفيها نبلغ درجة الحرارة أقصاها وتقام على

جوانبها أحواض تصب فيها مياه باردة وساخنة. وكانت القاعات والمخادع تتخذ أشكالاً مربعة أو مستطيلة.

ثامناً :- المصانع :-

كانت هناك عدد من المدن الساحلية تشغل ركناً هاماً من أركان المركز الاقتصادى فى المدن العربية والإسلامية القديمة بما تمثله من مناطق لصناعة السفن وكانت تسمى (دور صناعة القطائع) و(دور صناعة الإنشاء) وبجانب ذلك كانت هنالك صناعات أخرى تتمثل فى صناعة الأسلحة، الآلات ومعدات الحرب وصناعة التحف المعدنية والعاجية فظهرت نتيجة لذلك بعض الأساطيل البحرية التجارية، ومن أمثلة تلك المدن برشلونة، مرسية، مالقة، طليطلة وقرطبة.

تاسعاً :- الإطار الخارجي للمدن العربية والإسلامية القديمة

كانت المدن تحاط بأسوار متينة تقيها مطامع الأعداء، كانت بعض تلك الأسوار مستقيمة ومنتظمة فى مناطق المشرق المتأثر بالنظام الرومانى والفارسي أما فى مناطق المغرب العربي والأندلس فكانت متعرجة ومنثنية. وكان يتصل بتلك الأسوار أبراج مربعة، مثمنة أو مستديرة الشكل لتدعمها وتزيد فى مناعتها الدفاعية وفى جوانبها توجد الأبواب التى تربط المدينة ببقية الأقاليم الأخرى، وقد يسمى كل باب حسب الوظيفة التى يؤيدها مثل (باب النُقبة)، أو قد يسمى بأسماء المواضع المجاورة له مثل (باب البحر)، (باب العطارين) و(باب القنطرة)، كما قد يسمى بأسماء أشخاص بارزين فى المجتمع مثال (باب سعادة بن حيان) فى سور القاهرة، وقد سميت كثير من تلك الأبواب بأسماء المدن التى تفتح باتجاهها مثال (باب الكوفة) فى سور بغداد، (باب رشيد) فى سور الإسكندرية، كذلك سميت بعض الأبواب بأسماء القبائل التى نزلت فى المنطقة التى يطل الباب عليها مثال (باب البرقة) و(باب زويلة) بسور القاهرة، كم نجدها سميت بأسماء تجارة أو سلعة معينة أوإحدى المناسبات مثال (باب الزيت) بسور إشبيلية، (باب البُهار)، (باب الفرج) بسور الإسكندرية.

عاشراً :- الاستخدامات الأخرى :-

يمكن إجمال الاستخدامات الأخرى للأرض فى المدن العربية والإسلامية القديمة فى الاتى :-

- **المنتزهات :-**

كانت تشمل مواضع للنزهة والفرجة، ويقصدها الناس للترفيه والمتعة وكانت تقع فى ظاهر المدينة.

- **المدافن (المقابر) :-**

كانت توجد خارج البوابات حتى يسهل قصدها، فإذا توسعت المدينة فى اتجاه الخارج وأصبحت المدافن داخل أسوارها يتم تحويل المدافن إلى ميادين أو بساتين وتنشأ مدافن أخرى جديدة خارج السور الجديد.

أهم نتائج الدراسة :-

خلصت هذه الدراسة إلى الآتي :-

١/ كان لدى العرب والمسلمين فهم عميق بالعمران والعمارة نابعه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

٢/ تأثرت بعض المدن الإسلامية ببعض المفاهيم العمرانية فى المناطق التى سبقتها بالعمارة، إلا أن العرب والمسلمين أضافوا إليها الكثير، خاصة فى فن العمارة (الصحن المكشوف، المشربيات، الملاقف) والزخرفة الإسلامية.

٣/ بدأت بعض المدن الإسلامية كمعسكرات للجند ثم ما لبثت أن أصبحت مدن.

٤/ تأثرت التركيبة الداخلية للمدن العربية والإسلامية القديمة بالسمات النبوية فى خطة المدينة المنورة (يثرب).

٥/ دلت أسماء المدن العربية والإسلامية على أثر معاني الجهاد والنصر بجانب بعض التسميات المرتبطه بالطبيعة.

٦/ تخيرت معظم المدن العربية والإسلامية مواقع برية لقلة خبرتهم بالملاحة البحرية ولإرتباط تلك الجهات بالأعداء، فضلاً عن ترابط أجزاء الدولة الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع :-

١/ القرآن الكريم.

٢/ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٦٢ م.

٣/ السيد عبد العزيز سالم، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول، ١٩٧٧ م.

٤/ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، القاهرة، ١٩٨٧.

٥/ السيد عبد العزيز سالم، محاضرات فى تاريخ الحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٠ م.

٦/ السيد البشرى محمد، جغرافية العمران، منشورات جامعة السودان المفتوحة، الخرطوم، ٢٠٠٥ م.

٧/ السيد خالد المطري، دراسات في مدن العالم الإسلامي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٩ م.

٨/ المقريزي (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ)، خطط المقريزي (ج ١)، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

٩/ شاكر مصطفى، المدن الإسلامية حتى العصر العثماني، الجزء الأول وذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٨.

١٠/ صالح لمعي مصطفى، المدينة المنورة – تطورها العمراني وتراثها المعماري، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ.

١١/ عبدالرحيم غالب، مؤسسة العمارة الإسلامية، جروس بروس، بيروت، بدون تاريخ.

١٢/ عمرو خير الدين، المعالجات البيئية في تخطيط المدن الإسلامية وتصميم مبانيها، القاهرة، ١٩٩٧ م.

١٣/ عماد جعفر ساجواني، تاثير المنهج الإسلامي على الطابع والشخصية في تخطيط المدن، ندوة المنهج الإسلامي فى التصميم المعماري والحضري، (المغرب)، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة، ١٩٩١ م.

١٤/ فريد محمود شافعي، العمارة العربية والإسلامية " ماضيها وحاضرها ومستقبلها "، عمادة شئون المكتبات –جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٦٢ م.

١٥/ محمد توفيق عبدالجواد، معجم العمارة وإنشاء المباني، مؤسسة الأهرام، القاهرة، بدون تاريخ.

١٦/ نبيلة حسن محمد، فى تاريخ المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٤ م.

١٧/ ــــــــــــــــــــــــــــــ، التطور التاريخي لظاهرة الحوش في العمارة، القاهرة، مجلة عالم البناء (٢٠٤)، ١٩٩٨.

١٨/ يحي وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة : الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، مجلة عالم المعرفة، العدد (٣٠٤)، الكويت، ٢٠٠٤ م.